يا عاربةُ العراقَ العراقَ!

«أطفالٌ يرقدون على أَسِرَّة وسخة، يتأَوَّهُونَ وَجَعاً، وهم يَمُوتونَ مِنَ الإسْهالِ والالتهاباتِ الرّئويّة. بَعْضُ أفضل فنّاني العالَم العَرَبيّ يطوفون لبيْع لَوْحاتِهم لقاءَ أقلّ من ١٢ دولاراً لكلّ لوحة. رجلُ شرطة خمسيني متقاعد تعرّض لجلطةٍ في الدّماغ العامَ الماضي، يعرجُ مِن تاجر إلى تاجر بحثاً في سوقٍ للمأكولات عمّا يمكنه شراؤه براتِبِ تقاعدِه الّذي بات يوازي ـ بسبب التضخّم الماليّ ـ دولاريْن في الشّهر. . وهو مبلغٌ يكادُ لا يكفي لِشراء دجاجةٍ واحدةٍ أو حفْنةٍ مِنَ الأرزّ».

«كيلو غرام اللّحْم بـ ٧٥٠ ديناراً عراقياً، وكيلو غرام الدّجاج بـ ٦٥٠. هذان الثّمنان يشكّلان حوالي ثلث راتب الإنسان العراقي العادي. ولهذا السّبب توقّفَ أكثرُ النّاس عن أكل اللّحم».

«قبل خمس سنوات كان الدّينارُ العراقي يساوي أكثرَ مِن ثلاثة دولاراتٍ بقليل. اليوم باتَ الدّولارُ الواحد يساوي بين ٥٠٠ و٦٠٠ دينار. ولم ترتفع المعاشات؛ فَطبيبٌ أو مهندسٌ أو موظّف حكوميّ يؤمّن بين ٣٠٠ و٥٠٠ دينار في الشّهر على الأكثر، وهو ما يوازي ٦ ـ ١٠ دولارات. . . وأمّا المتقاعدون فيعيشون على حوالي ٣ دولارات في الشّهر».

«منظّمة اليونيسيف تقول إنّ هناك زيادةً في سوء التغذية هذا العام تقدَّرُ بستّة في المائة بين أطفالِ العراق. وتؤكّد كاثرين برْتيني ـ وهي المديرةُ التنفيذيّةُ لمنظّمة الصحّة العالميّة في روما ـ أنّ تخفيض المُخَصَّصات [الّتي يُعْطاها الفَرْدُ العِراقي، بحسب تخْمينات الحكومة العراقيّة المركزيّة] يُشكّل خطراً على صحّةِ مليوني وربع مليون طفل عراقي، بالإضافة إلى صحّة ٢٣٠ ألف امرأةٍ حاملٍ أو مُرْضِع. . . والواضح أنّ العراق سيعجز بعد فترةٍ قصيرة عن تأمين هذه المخَصَّصاتِ الزّهيدةِ نفسها؛ فالمال الّذي يُقَدَّرُ بحوالي ٧٠٠ (سبعمئة) مليون دولار سنوياً، ثمناً لها ـ يتناقص بوتيرةٍ متسارعة [حَسب تأكيد وزير التجارة سَعدي مَهدي صالح]».

* * *

هذه الصّورة المأساويّة الّتي نَقَلها إلَيْنا مُراسلُ جريدة **النيويورك تايمز** يوسف إبراهيم (٢٥ تشرين الأوّل ١٩٩٤) تطرح علينا أسئلةً متعدّدة لابدّ أن نحاول التصدّي لها إنْ نحن أرَدْنا الإسهامَ في رفع الكارثة عن كاهلِ الطّفل العراقي والشّعب العِراقي بشكل عامٍ. ويمكن تلخيص هذه الأسئلة بالتالي:

١ ـ إلامَ يهدفُ حِصارُ العِراقِ وَتجويعُهُ بهذا الشّكْل المُهين ـ لَهُ، ولنا، على حدّ سواء؟

٢ ـ هل يجوز أن تبقى الأمم المتّحدة ـ وهي الّتي تفرض الحصارَ الجائرَ على العراق ـ فَوْق الأعراف الإنسانيّة؟ وهل يجوز أن تتخلّى عن دورها المحايد والأخلاقي المرسوم لها أساساً، لتستحيلَ أداةً سياسيّةً في قبضةِ طرفٍ سياسيّ معيَّن؟

٣ ـ ما هي نتائجُ «المنطقة الآمنة» الّتي فَرَضَتها الأُممُ المتّحدة في كُرْدستان العِراق، بحجّة حماية أشقّائنا الأكراد مِن «عَسْف» الحكومة المركزيّة في بغداد؟

٤ ـ وأخيراً، أيّ دورٍ يمكن أن يؤدّيَهُ المثّقفُ العربيّ، وهو يرى إلى آلاف الأطفال العراقيين يذْوونَ ساعةً بَعْدَ ساعة؟

* * *

١) ممّا لا ريْبَ فيه أنّ حصارَ العِراق، مِن حيثُ نتائُجُهُ، استمرارٌ واضِحٌ لِلْحَرْب الّتي شَنّتْها عليه الدّولُ الغربيّةُ ـ وعلى رأسها الولاياتُ المتّحدةُ وبريطانيا ـ عَقِبَ غَزْوِهِ للكويت في صيف ١٩٩٠. بَلْ **إنّ حصيلةَ الحصار في صفوف المدنيين تفوق** (حتّى تاريخ كتابة هذا التّقرير) **حصيلةَ القَصْفِ نَفْسِه**. فأكثر من ٤٧ ألف طفل عراقي ماتوا بين كانون الثاني وآب ١٩٩١، وحسب تام داليال Tam Dalyell ـ وهو النّائب البريطاني العمّالي ـ فإنّ الضّحايا الأطفال حتّى أيّار ١٩٩٣ من جرّاء الحصار وحده يفوقون المئة ألف قتيل بأعدادٍ كبيرة[1]. وتَذْهَبُ بعضُ التّقاريرِ غير الحكوميّة إلى أرقام خياليّة، لكنّها حقيقيّة لأنّها ليستْ عصيّة على التّصْديق: ٤٠٠ ألف قتيل، معظمُهُمْ مِنَ الأطفال والعُجَّز جرّاءَ الحِصار الدَّوْليّ وحده. والضّحايا مازالت تسقط كُلَّ ساعةٍ وكلَّ يوم، رغم أنّ النّظام العراقي ـ وباعتراف مجلس الأمن نفسه ـ قد تجاوَب مع معظم قرارات الأمم المتّحدة.

لقد باتَ جليّاً، ولاسيّما في الآونَة الأخيرة، أنّ الحصارَ على العراق يهدف إلى تغيير نظام الحُكْم في بغداد. . . ولو عن طريق إحلالِ قائدٍ عسكريّ جبّار آخر مكانَ الرّئيس الحالي صدّام حُسيْن. وفي العدد الصّادر يوم ١٧ تشرين الأوّل عام ١٩٩٤ من جريدة **الحياة**، أكّدَ مسؤولٌ بريطانيٌّ حكوميٌّ (طَلَبَ عَدَمَ الكَشْفِ عن اسمه) أنّ بريطانيا «أكثرُ تشدّداً مِنَ الفرنسيّين، وسيكون صعباً جداً رفْعُ العقوبات وصدّام [حسين] في السُّلْطة». وغنيّ عن البيان أنْ ليس ثمّة رئيسُ نظامٍ واحدٍ في العالم يتجاوب تجاوباً كلّياً مع قراراتٍ تهدف إلى استبعادِه أوْ قَتْله (باستثناء الجنرال سيدراس في هايتي، الّذي قَبَضَ مبالغ ضخمة من الولايات المتحدة)!

---

(١) Noam Chomsky: **World Orders, Old and New** Colombia university Press 1994, p. 16.

غير أنّ للحصار أبعاداً أُخرى تَتَعَدّى مجرّد استبدالِ رئيس بآخر. فالحصار تتويجٌ للحرب، من حيث أنّ كليهما وسيلةٌ تهدف إلى تحطيم دولة مِنْ دول العالم الثّالث المستقوي «وتلقينه بعضَ الدّروس المفيدة عن الطّاعة»[٢] الّتي ينبغي على شعوب العالم كلّه تقديمُها للإلّه الأمريكي. وهكذا، فإنّ العقوبات المفروضة على العراق ليستْ إلاّ عنصراً آخرَ من عناصر الحرب الأمريكيّة / البريطانيّة على العراق (والعالم الثّالث)، بدلاً من أن تكون أداةً لِحَلّ الأزمة الّتي نشأتْ بَعْد غزو العراق للكويت.

* * *

٢) وهذا يقودنا إلى السّؤال التّالي: هل يجوز أن تبقى الأممُ المتّحدة أداةً بيد طرف سياسيّ؟ هل يجوز أن تبقى فوقَ الأعراف الإنسانيّة؟

منذ شهور قليلة خصّصت مجلّة Merip الصّادرةُ في الولايات المتّحدة عدداً خاصّاً موضوعه «التّدخّل الإنساني». وقد لاحظ أكثر كتّاب هذا العدد أنّ الأمم المتّحدة قد بطلتْ أن تكون قوّة أخلاقيّة محايدة بسبب هيمنة دول محدّدة على مجلس أمنها. ولذلك يحثّ كُلٌّ من «ألكس دي وال» و«رقيّة عمر» على وجوب خضوع القوّات العسكريّة «الإنسانيّة» للمحاسَبَة، ووجوب احترامها لقوانين الحرب ولقرارات جنيف. وفي العدد نفسه، يدعو كُلٌّ من «رونالد أوفترينچر» و«رالف باخر» إلى دَفْرَطَة مجلس الأمن الدّولي، بحيثُ يتمّ تمثيل الشّعوبِ الضّعيفة والشّعوبِ الّتي لا دُوَلَ لها (كالأكراد) في المجلس المذكور، فلا يبقى حَكَراً على الدّول الغنيّة والمستكبِرَة. والحقّ أنّ بقاءَ مجلس الأمن في أيدي هذه الدّول هو في رأينا ـ مِنَ الأسباب الّتي أدّتْ إلى أن تَنْتهكَ العقوباتُ المفروضةُ على العراق حقوقاً إنسانيّة شرعيّة: فهل تعلمون، مثلاً، أنّ قرارات مجلس الأمن تمنع العراقَ منَ استيراد أسِرَّة صحيّة للمستشفيات وأدويةٍ كيماويّةٍ جراحيّة، بحجّة أنّها قد تُستَخدَمُ من قِبل الحكومة المركزيّة العراقيّة لأهداف عسكريّة؟! وهل تعلمون أنّ الدُّول الغنيّة ـ كالّتي فَرَضَتِ الحصارَ وقامَتْ بالحَرْب على العراق ـ لَمْ تَسْعَ إلى تغطيةِ كلفةِ برنامج اليونيسيف لمعونة شعب العراق المحاصَر، فلم يتلقَّ هذا البرنامجُ (على حدّ تأكيد ممثّل اليونيسيف في العراق «توماس إكْفال») إلاّ سبعةً بالمئة (٧٪) من أصل ٨٦ ألف دولار؛ وهل تعلمون أنّ ربعَ أطفال العراق يَزِنُون أقلَّ بكثير من الأطفال الطّبيعيّين، وأنّ الأمواتَ منهم قد صاروا ثلاثةَ أضعافِ الأموات من الأطفال عام ١٩٩٣، أيْ بنسبة ٩٢ بالألف؟! أيُّ قانونٍ دوليّ يسمح بهذه الجرائم؟

* * *

٣) بل تَعالَوْا نُلْقِ نظرةً سريعة إلى وَضْع الأكْراد العراقيين تحت الحماية الدّوليّة، أي في المنطقة «الآمنة» الّتي أقامتها لهم الولاياتُ المتّحدة ـ عفواً، الأُممُ المتّحدة ـ لحمايتهم مِنْ قمع السّلطة المركزيّة. وفي هذا المجال يؤكّد كُلٌّ من «أوفترينچر» و«باخر» على الحقائق التّالية:

أ) لم تُحَرِّكْ دُوَلُ الحلفاء ساكناً عَقِب إخْماد الرّئيس العراقي الهبّاتِ الشّعبيّة الّتي حدثتْ في ٢٨ شباط ١٩٩١ في شمالي العراقِ وجنوبه. والمعلوم أنّ أكثر مِنْ مليوني كرديّ هاجروا بسبب هذه الأحداث إلى الحدود الفاصلة بين العراق وكُلٍّ من تركيّا وإيران. والجدير ذكره أنّ الدُّوَلَ الغربيّة كانت عام ١٩٨٩ (أي قبل حرب الخليج الثّانية) قد رَفَضَتْ في مؤتمر عُقِدَ في باريس إدانةَ العِراق بتهمة استخدام أسلحة كيماويّة ضدّ شعبه!

ب) رفضت الأممُ المتّحدةُ مطالب «الحكومة الكرديّة المؤقّتة» الّتي انبثَقَتْ من انتخابات ٩ أيار ١٩٩٢. وهذه المطالب تُلخَّصُ بثلاثة: ١) حصول «الحكومة المؤقّتة» على سَنَدات الحكومة المركزيّة العراقيّة المجمَّدَة في الخارج؛ ٢) استثناء «الحكومة المؤقّتة» من شروط الحِصار الدّوليّ المفروض على باقي مناطق العراق؛ ٣) السّماح لـ «الحكومة المؤقّتة» بتصدير النّفْط لتغطية نَفَقاتها. وبرفض الأمم المتّحدة لمطالب هذه الحكومة، يتعرّض أكرادُ العراق اليوم لحصارٍ مزدوج: حصار مضروب عليهم من حكومة بغداد بسبب عصيانهم، وحصار مضروب عليهم من «حلفائهم» الغربيين بسبب عصيان «عَدوِّهم» صدّام حسين!

ج) تَرَكَّزت المعونةُ الدّوليّةُ للأكرادِ في المنطقة «الآمنة»، وهي المنطقة الّتي تشكّل مركزَ قُوّةٍ للزعيم الكرديّ مسعود برزاني، في حين استُبْعِدَتْ معظَمُ أنحاء السُّلَيْمانيّة من هذه المعونة. والمعلوم أنّ المنطقة الأخيرة تقع تحت سيطرة زعيم كرديّ آخر، هو جلال الدّين الطّالباني. فكانَ من جرّاء هذه «المعونة» الدّوليّة ـ وحسب الكاتبيْن المذكوريْن آنفاً ـ أنِ انْعَدَمَ التّوازُنُ بين المنطقتيْن وتأجّجَ الصّراعُ بين الجماعتيْن الكرديتيْن!

(٢) المصدر السابق، ص ١٠.

ردود على أدونيس

وردت قلم التحرير ردودٌ عدّة على مقال أدونيس المنشور في العدد الماضي بعنوان «حول قضايانا الرّاهنة».

ولمّا كان هذا العدد خاصّاً بالأدب العراقي الحديث، والعدد القادم الذي يصدر أواخر العام خاصّاً بالأدب المغربيّ الحديث، فقد تقرّر تأخير نشر هذه الردود إلى عدد تالٍ.

«الآداب»

استنكار...

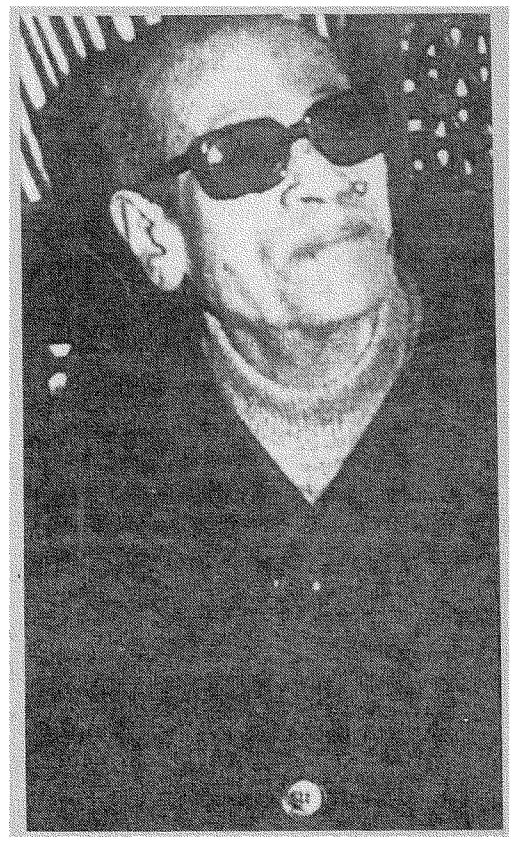

انسجاماً مع موقفنا القديم الجديد، نستنكر كلّ محاولة لخنق حريّة التّعبير، سواء بالقمع المعنوي المتمثّل بمنع الكتابة أو إخضاعها للرقابة، أو بالقمع المادّي المتمثّل بالاعتداء الجسديّ.

إنّنا لا نؤمن إلاّ بالحوار والنّقاش سبيلاً للقناعة والإقناع حين يكون الطّرفان ندّيين، وحين يكونان متساويين في الشّرط السّياسي أو الاجتماعيّ. ولأنّنا نشكّ في هذا التّساوي بين العربيّ، صاحب الحقّ في فلسطين، وبين الإسرائيليّ، مغتصب هذا الحقّ، فإنّ هذا الحوار مرفوض. من هنا يأتي شجب موقف نجيب محفوظ حين يوافق، كما قرأنا في الصّحف، على التّرحيب باستقبال الكتّاب الإسرائيليين في ندوته الأسبوعية بالقاهرة.

وبالمقابل، فأنْ ينصّب بعض النّاس أو بعض القوى الاجتماعيّة نفسها مرجعاً للأحكام، فإنّ ذلك مرفوض أيضاً، لأنّه مصادرة واعتداء على المراجع المدنيّة المشروعة. والاعتداء على نجيب محفوظ مثل صارخٌ على ذلك.

سهيل إدريس

د) لم تَحْم القوّاتُ الدّوليّةُ السُّكّانَ الأكرادَ مِنْ هجماتِ الجيش الإيراني ولا هجماتِ الجيْش التركيّ، ناهيك عن هجمات السّلطة المركزيّة. وحتّى على صعيد الوضع الدّاخلي لكردستان العراق، فقد زادتْ معدّلاتُ اعتداءاتِ الرّجال على النّساء، واشتدّ الصّراعُ على الماء والأرض، واستفْحَلَتِ النّزاعاتُ بَيْنَ الفلاّحين وأرْبابِ عملهم!

هـ) باتتِ العائلةُ الكرديّة المتوسّطة بحاجةٍ إلى حوالي ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) دينار عراقي شهرياً، مقابل ١٠٠ (مئة) دينار كانت تكفيها قبل وقوع الحربِ والحصارِ!

ويخلصُ الكاتبان في مقالِهما المُعَنْوَن «جمهوريةٌ بلا دولة: ثلاثُ سنوات على التدخّل الإنساني في كردستان العراق» إلى إدانة الأمم المتّحدة بسبب عوقِها المجتَمَعَ الكرديّ عَنْ إعادة تأهيل نفسه. وبكلمة واحدة، فقد كانَ مشروع المنطقة الآمنة في كردستان العراق «فاشِلاً».

* * *

٤) السّؤالُ الأخير هو السّؤالُ الأَصْعَبُ، بالطّبع. فالكاتبُ العربي، في هذه الأيّام بشكلٍ خاصّ، عاجزٌ عن أن يقفَ الحصارَ أو أن يفرضَ على حكومته أن تقومَ بأيّ عَمَلٍ من أجل تخفيف آلام الشّعب العراقي الشّقيق... هذا إذا لم يتعرّض هذا الكاتبُ العربيّ إلى السّجن والتّعذيب والتّشهير والنّسب إلى «العمالة للعراق» كما حَدَثَ أثناء حرب الخليج الثّانية للشاعر المصري الكبير محمّد عفيفي مَطر.

ومع ذلك فإنّ من واجب كُلّ مثقّف عربيّ شريف القيامَ بالخطوات التّالية، وهذا أضْعَفُ الإيمان:

أ ـ مَعَ الإدانة الجازمة لغزو الكويت في صيف ١٩٩٠، والتهديدات العراقيّة الأخيرة لها في تشرين الأوّل الماضي، فإنّه ينبغي على الدّوام فَضْحُ المهمّة «الإنسانيّة» التي تقومُ بها الولاياتُ المتّحدة وبريطانيا وأتباعُهما... وإدراج هذه المهمّة في سياق الهيمنة الإمبرياليّة على المنطقة العربيّة وعلى مواردِها الحيويّة.

ب ـ وجنباً إلى جنبٍ مع مطالبتنا الدّائمة بإعطاء المزيد من الحرّيّات الدّيموقراطيّة للشعب العربي في جميع الأقطار العربيّة (بما فيها العراق الجريح)، ومطالبتنا أيضاً بإيجاد حلّ أخويّ ودائم للأقلّيات القوميّة الّتي تشاركنا حبَّ الوطن والدّفاعَ عنه... فإنّه ينبغي في الوقت نفسه أن نحذَرَ من بعضِ أطرافِ المعارَضَة العراقيّة الّتي لَمْ تشجبِ الحصارَ المفروضَ على شعبِها! تصوَّروا!!

ج ـ مطالبة حكوماتنا العربيّة والإسلاميّة، وبشكل دائبٍ ودائم، بإطلاق الأرصدةِ العراقيّة المجمَّدَة لديها، وبرفع الحصار الجوّي عَن العِراق (من قِبَلِ اتّحاد الطّيران العربي). وفي هذا المجال لابدّ من تثمين الموقف النّبيل الّذي اتّخَذتْه أحزابُ المعارَضَة الأردنيّة في نهاية شهر نيسان من العام الحالي.

* * *

ولا يجوز لنا ختاماً، ونحنُ نقدِّم لهذا العدد الممتاز من **الآداب**، إلاَّ أن نوجِّه رسالةَ تَضَامُنٍ ـ قد لا تَصِلُ أبداً في اليوم الّذي نرجوه، ولكنّها ستصل في يومٍ تالٍ ـ . . . . رسالةَ تضامُنٍ مع أشقّائنا مثقّفي العراق وفنّانيه. ليس أصعبَ من أن تبيع لوحةً من أجمل لوحاتك لتشتري علبةَ حليب لأطفالك، أو أن تبيع أجملَ الكتب في مكتبتك الخاصّة لقاءَ سكّر أو طحين! لن نقول لكم يا أشقّاءنا إنّنا نستمدّ من عزيمتكم عَزْماً؛ فنحن نعرف وأنتم تعرفون أنّ الذُّلَّ والحصارَ يضربان كلَّ فردٍ عربيّ في هذه الأيّام الجهنّميّة من السّلام المشوّه مع عدوِّنا القوميّ «إسرائيل». ولن نَقول لكم أنِ اصبُروا «ففجرُ عراقٍ حرّ آتٍ لا ريْبَ فيه»؛ فهذا الظّلام الدّامس قد يطول ويطول، وقد نَذوِي قبل أن ينفلق الصُّبْح.

لكنّنا نقول إنّنا معكم، مع حَناجركم الّتي تحبس الصَّرخة، مع أقلامكم الّتي تُسَرِّب لنا ـ في القصّة والقصيدة والمقالة، كما هو بيّن في هذا العدد الّذي بين أيديكم ـ كلمةً شجاعَةً مسؤولةً في وَجْهِ الإرهاب والحصارِ والجريمة.

تحيّة لكم من مجلّتكم **الآداب**: يا ماجد، وجبرا، وإرادة، وحاتم، وطرّاد، ومهدي عيسى، وأحمد خلف، وموسى كريدي، وياسين طه حافظ، وعلي الطّائي، ونازك الأعرجي، وعبد السّتّار، والعشرات. وتحيّة لكم أيّها السّاهرون على فراش نازِك، تؤجّجون لهيب شمعتها المحتضرة. وسلاماً لكم يا كتّاب العراق في الغربة: سعدي، عبد الرّحمن، شاكر، والعشرات غيركم.

. . . وإلى أيّام أقلَّ ذُلاًّ!

س. س. إ.

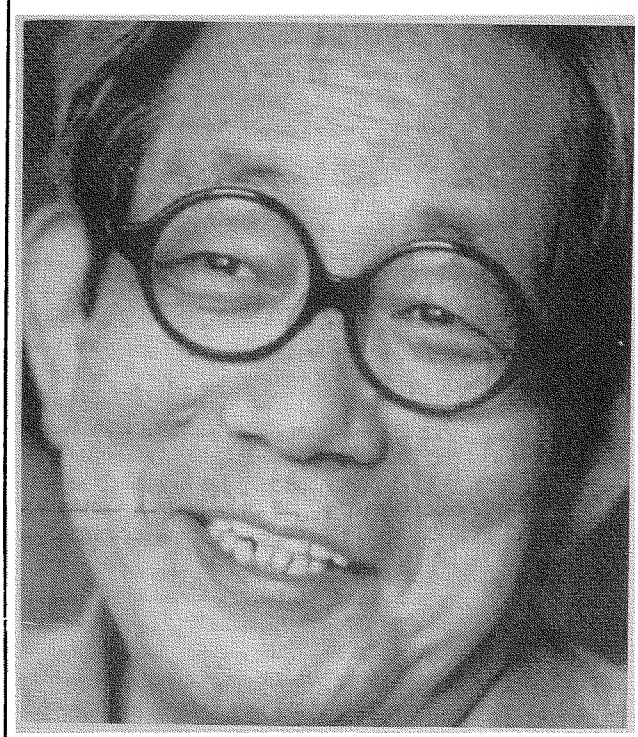

جائزة نوبل
للروائي الياباني
كينزا بورو اوي

عَلَّمنا أن...
نتجاوز جنوننا

ترجمها إلى العربية
كامل يوسف حسين
منشورات دار الآداب